تأويل السلف لصفات الله تعالى



تاليف
أ.د محمد ربيع جوهري
أستاذ العقيدة بكلية أصول الدين
وعميدها السابق - جامعة الأزهر





الناشر



الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

رقم الايداع
٢٠١٣/١٦٧٨

الناشـــر
مكتبة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع

٤ شارع أحمد سوكارنو - العجوزة - فاكس : ٣٣٠٤٤٨٤١
هاتف : ٣٣٤٥٢٣٠٢ - محمول : ٠١١٣٣٧٥٣٧٥
elemanliblary @yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير رسل الله سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبع هداه .

وبعدُ : فوسط هذا الصياح والنباح ، ومع هذه الضجة الجائرة الفاجرة ، ومع هذا الهجوم الظالم الآثم ، على هذا الصرح العظيم الشامخ (الأزهر الشريف) الذي نشر علماؤه الأفذاذ خلال قرون علوم الإسلام في شرق الدنيا وغربها ، وشمالها وجنوبها ، بل ودخل على أيديهم ببركة إخلاصهم لدينهم كثيرون في هذا الدين الحنيف .

ومع هذا الاختراق الذي أصاب بعض المنتسبين إليه بالعقوق ، والجحود ، والنكران له رغم أنهم تربوا على نفقته ، ومُنحوا درجاته وشهاداته ، ولولاه ما كانوا شيئا مذكورا .

وقد رأينا بعضهم بعد أن كانوا حفاة ، عراة ، عالة ، صاروا يتطاولون في البنيان ، ويعددون في النسوان ، ويركبون ما

شاءوا من سيارات، بعد أن سالت في أيديهم الريالات والدولارات.

فما أعجب هذا الاختراق الفكري، الذي يعقبه ذلك الترف المادي!

واليوم يدفعهم الشره، والطمع، وحبُّ الدنيا للتطلع إلى الوظائف المرموقة، والمناصب العالية الزائلة الموقوتة، فنسوا ما درسوه، وتنكروا لما تعلموه فاستوردوا عقيدة بدل عقيدة، وجلبوا منهجا بدل منهج فنسوا ما ذُكّروا به، وما بقوا (أزهريين محترمين) وإنما لفظتهم الجماهير أصحاب الفطر السليمة، فصاروا لهم كارهين، وعليهم غاضبين، ولهم لاعنين، فخسر أولئك العلم والدين. ذلك هو الخسران المبين.

وسط هذا الجو أقدم هذا الكتاب: (تأويل السلف للصفات الواردة في كتاب الله)، بعد أن زج هؤلاء بالعامة عن طريق وسائل الإعلام في موضوعات علمية دقيقة، خاصة بالعلماء المتخصصين، وما دروا أن العلم للنفس كالغذاء للبدن، يختلف بحسب العمر والظروف، فطعام الكبير لا

يصلح للفطيم، وطعام الفطيم لا يصلح للرضيع، وللصحيح غذاؤه، وللمريض غذاؤه ودواؤه.

وبعد أن سمعنا التطاول على «الأزهر الشريف» لأنه نشر خلال قرون (المذهب الأشعري) في العقيدة، والذي تلقَّته الأمة بالقبول والارتياح، لما امتاز به من وسطية في فهم عقيدة الإسلام دون إفراط أو تفريط، ولأن علماء المذهب يؤولون بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عندما تفرض الضرورة ذلك طبقا لقواعد اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ونطق بها من أوتي جوامع الكلام ﷺ.

فرُمي الأزهر بالبدعة والمروق. وصارت (الأشعرية) في نظرهم فرقة (نارية) وليسوا من أهل السنة والجماعة.

وكتب أحد رموزهم عن التأويل يقول: «ومعناه المبتدع: صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى احتمال مرجوح لقرينة. فهو بهذا المعنى تحريف للكلام عن مواضعه» هكذا زعم!

وقال: «مذهب السلف لا تأويل فيه لنص من النصوص

الشرعية إطلاقًا، ولا يوجد نص واحد:

لا في الصفات. ولا غيرها.

اضطر السلف إلى تأويله، هكذا ادعى!

فكان بحثنا هذا لتسجيل عشرات النصوص في: الصفات، وفي غيرها مما أوّله السلف من أهل القرون الثلاثة المفضلة- رحمهم الله.

وقد قرنا كل نص بمرجعه، ولم نضع المرجع في الحاشية لتسهُل المتابعة، ولا يتردد بصر القارئ بين أصل الصفحة وذيلها.

وقد اقتصرنا على ما يتصل بالآيات القرآنية، ولعلنا نتمكن- إن شاء الله- من نشر ما يتصل بالأحاديث النبوية إن كان في العمر بقية.

لكنا نكتفي في هذه المقدمة بذكر ثلاثة أحاديث نبوية مع ذكر تأويلها:

الحديث الأول- وفيه تأويل الصحابة رضي الله عنهم لحديث النبي، وعدم الأخذ بظاهره، وإقرار النبي ﷺ لهم.

الحديث الثاني- وفيه نص للنبي ﷺ لم يُرد ظاهره، ولم يُكشف ذلك إلا بعد موته.

الحديث الثالث- وفيه تأويل للإمام البخاري رحمه الله وتصريح بالحقيقة والمجاز وذلك أساس التأويل.

أما الأول: فما رواه مسلم عن عبد الله قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف من الأحزاب: «أن لا يُصلِّين أحد الظهر إلا في بني قريظة» فتخوّف ناس فوت الوقت، فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنّف واحدًا من الفريقين- (٣/ ١٣٩١).

فالفريق الأول أوّل النص بأن المراد: الإسراع في المشي للوصول إلى بني قريظة.

والفريق الثاني أخذ بظاهر النص الذي ينهى عن صلاة الظهر إلا في بني قريظة.

وقد أقر النبي ﷺ كلا من الفريقين على ما ذهب إليه: من أخذ بالظاهر، ومن أوّل.

الحديث الثاني- ما رواه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ لأزواجه: «أسرعكن لحوقًا بي أطولكن يدًا».

قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمدُّ أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة» [المستدرك ٤/ ٢٦].

والحديث واضح في أن النبي ﷺ لم يُرد المعنى الظاهر بطول اليد الذي فهمته أمهات المؤمنين، فكنَّ يقسْن أيديهن على الجدار، أو بعصا، كما في بعض الروايات لمعرفة أيتهن أسرع لحوقًا بالنبي ﷺ بعد وفاته، وهذا هو المعنى الظاهر المتبادر من العبارة.

ولكن لما توفيت زينب بنت جحش قبلهنَّ، فكانت أسرعهنَّ لحوقًا به ﷺ علمن أنَّ المراد بهذا الحديث ليس المعنى الظاهر الذي تبادر إليهنَّ، فزينب لم تكن أطولهنَّ يدًا

حقيقة، بل كانت امرأة قصيرة.

فعرفن أن المراد بطول اليد كثرة ما كانت تتصدق به من دخلها من صنع يدها.

الحديث الثالث- حديث رواه البخاري عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، قال: وقد فزع أهل المدينة ليلًا. سمعوا صوتًا قال فتلقاهم النبي ﷺ على فرس لأبي طلحة عُري، وهو متقلد سيفه فقال: لم تراعوا، لم تراعوا، ثم قال رسول الله ﷺ: وجدته بحرًا. يعني الفرس». [فتح الباري ٦/ ١٨٩].

هذا الحديث أوّله الإمام البخاري مع غيره من نصوص فقال: «إن أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه: الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق، ولا الفعل من المفعول، ولا الوصف من الصفة، ولم يعرفوا الكذب لِمَ صار كذباً، ولا الصدق لِمَ صار صدقاً.

فأما بيان المجاز من التحقيق. فمثل قول النبي ﷺ للفرس: «وجدته بحرًا» وهو الذي يجوز فيما بين الناس.

وتحقيقه أن مشيه حسن .

ومثل قول القائل : علمُ الله معنا ، وفينا ، وأنا في علم الله . وإنما المراد من ذلك : أن الله يعلمنا . وهو التحقيق .

ومثل قول القائل : النهر يجري ، ومعناه : أن الماء يجري ، وهو التحقيق .

وأشباهه في اللغات كثيرة » . (أفعال العباد والرد على الجهمية ص٢٠٩) .

هذه الأحاديث الثلاثة أرجو أن يتأملها جيدًا أولئك الذين يحرمون التأويل ، ويمنعون المجاز في اللغة العربية ، ويبدِّعون من يقول بذلك ، ويطعنون في عقيدته ، ويخرجونه من (أهل السنة) .

والله أسأل أن ينوّر البصائر ، ويطهّر القلوب ، ويوحد الصفوف ، وأن يرزقنا جميعًا الإخلاص والقبول ، وأن يوفقنا لعمل الخير ، وخير العمل .

المؤلف

أ . د محمد ربيع جوهري رفاعي

مدخل

درسنا في المعاهد الأزهرية ضمن المناهج الدراسية للسنة الأولى الثانوية في الستينات (علم البيان) أحد علوم البلاغة التي أسسها علماء المسلمين من أجل بيان أسرار بلاغة القرآن الكريم ، وكان من أهم مباحث هذا العلم مبحث (الحقيقة والمجاز) .

وكل منهما إما عقلي ، أو لغوي :

والحقيقة العقلية هي : إسناد الفعل أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر .

والمراد بمعنى الفعل : المصدر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة ، واسم التفضيل ، والظرف ، والجار والمجرور .

والمجاز العقلي هو : إسناد الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلم في الظاهر لعلاقة ، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ فالآيات لا تزيد الإيمان، وإنما الذي يزيده هو الله تعالى بسبب الآيات، والعلاقة هنا هي السببية، والقرينة استحالة وقوع الفعل من الآيات.

وعلاقات المجاز العقلي كثيرة غير السببية.

منها: الزمانية مثل: زيد نهاره صائم. والمراد صائم في نهاره.

ومنها: المكانية مثل: (تجري من تحتها الأنهار) والنهر لا يجري: لأنه الفراغ بين الشاطئين، وإنما الذي يجري الماء في النهر.

ومنها: الفاعلية: مثل: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أسند الرضا للمعيشة، وهو في الحقيقة لصاحبها. فهي عيشة مرضية، ومثل: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ أسند الدفق إلى الماء، وهو مدفوق لا دافق.

ومنها: المفعولية بأن يسند الفعل المبني للمجهول إلى الفاعل كقولهم: (سيلٌ مُفْعَم) فقد أسندوا اسم المفعول، وهو

مفعم إلى الفاعل، وحقه أن يسند إلى المفعول: وهو الإناء مثلًا، يقال: أفعم الإناء: ملأه.

والحقيقة اللغوية هي: الكلمة المستعملة فيما وُضعت له في اصطلاح التخاطب.

والمجاز اللغوي هو: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب لعلاقة، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

وهذه العلاقة: إن كانت غير المشابهة، فهو (المجاز المرسل) وإن كانت المشابهة، فهو (الاستعارة) فكل منهما مجاز بالمعنى العام.

والمجاز المرسل له علاقات كثيرة منها:

١- الكلية: مثل: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ فالمراد بالأصابع: الأنامل.

٢- الجزئية: مثل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فالمراد بالرقبة: العبد كله.

٣- الحالية: مثل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ فالمراد

بالنعيم: الجنة. والنعيم حال فيها.

٤- المحلية: مثل: ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ أي قلوبهم، والصدور محل لها.

٥- اعتبار ما كان مثل: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: من بلغ الرشد ممن كان يتيمًا.

٦- اعتبار ما سيكون: مثل: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي عنبًا، سيكون خمرًا.

٧- السببية: مثل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ المراد: القصاص، والسيئة سببه، أي وجزاء فعلة قبيحة عقوبة مثلها في القبح.

٨- المسببية مثل: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾، أي مطرًا، والرزق مسبب عنه. وهناك علاقات كثيرة أخرى.

وأما القسم الثاني من المجاز اللغوي، وهو الاستعارة، فقد عرفوها بأنها: الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة بين المعنيين، وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

فهي في الأصل تشبيه حُذف أحد رُكنيه. فإن حذفنا المشبه، وصرحنا بالمشبه به، فهي (الاستعارة التصريحية)، مثل قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فقد شبه الضلال بالظلام في عدم الاهتداء، وشبه الهدى بالنور؛ لأن كلًّا منهما يوصل صاحبه إلى بغيته، ثم حُذف الضلال، واستعير له الظلام، وحُذف الهدى، واستعير له النور، فهي استعارة تصريحية.

وأما إذا حُذف (المشبه) ورُمز له؛ أو كُني عنه بشيء من لوازمه فهي (الاستعارة المكنية) مثل قوله:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع

شبه المنية بالسبع، وحذفه، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الأظفار.

ومثل قوله:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها
نمْ فالمخاوف كلهنّ أمان

شبّه العناية بإنسان، وحذفه، وكنّى عنه بالعيون.

وقد ألحق البلاغيون بالمجاز ما سمّوه: (مجاز الحذف والزيادة) وهو الذي يحدث بسببه تغيير في الإعراب.

مثال الحذف: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ فقد حذف لفظ (أهل) فتغيّر إعراب القرية: فصارت منصوبة بعد أن كانت مجرورة، فقد استعمل النصب في غير موضعه، لأن النصب في (القرية) كان من حق المضاف: فهو من هذه الجهة يُشبه استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، فساغ أن يُسمُّوه مجازًا، أو ملحقًا به.

ومثال الزيادة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الكاف هنا زائدة، لأن نظم الكلام: ليس مثله شيء، وزيادة الكاف غيّرت الحكم الإعرابي لكلمة مثل، فبعد أن كانت منصوبة خبرًا لليس، صارت مجرورة بالكاف: فهو من باب المجاز بالزيادة الملحق بالمجاز عمومًا.

هذه أهم القواعد التي درسناها ونحن صغار مما سجله علماء البلاغة في مبحث (الحقيقة والمجاز).

ثم درسنا العلوم الإسلامية والعربية التي نشأت لخدمة كتاب الله، وسنّة رسول الله ﷺ فوجدنا علماءنا الأكابر- رحمهم الله وجزاهم خيرًا- يسيرون على هذه القواعد البلاغية.

فها هم علماء التفسير على اختلاف اتجاهاتهم يستخدمونها في بيان أسرار بلاغة القرآن الكريم.

وها هم شُراح الحديث النبوي خلال القرون المتعاقبة يستعملونها في بيان معاني أحاديث من أُوتي جوامع الكلِم، واختُصِر له الكلام اختصارًا ﷺ.

وها هم علماء التوحيد عندما يعرضون لصفات الله تعالى التي يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى لخلقه في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله يقولون: إن في المسألة مذهبين:

مذهب السلف: وهو إمرارها كما جاءت: وتفويض معناها إلى الله تعالى.

ومذهب الخلف: وهو تأويلها بما يتفق مع تنزيه الله عن الجسمية، وتوابعها، ومع قواعد اللغة العربية التي نزل بها

القرآن الكريم .

فالمذهبان متفقان على أن ظاهر اللفظ المادي غير مراد ، وهذا ما يعرف بالتأويل الإجمالي ، والخلاف بينهما في التأويل التفصيلي ، وهو تعيين المراد .

هكذا سارت الأمور معي ، أو سرت معها إلى بداية السبعينات من القرن الماضي ، وأثناء اشتغالي بالدراسات العليا ، اشتريت فيما اشتريت كتاب : (الإيمان) للإمام ابن تيمية .

فلما اطلعت عليه عجبت كل العجب لإنكاره تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، وأن هذا لم يعرف عند (السلف) ورأيته يبني آراءه في العقيدة في كل ما كتب على هذا الأمر .

إنه يقول في كتابه الإيمان : « هذا التقسيم هو اصطلاح حادث بعد انقضاء القرون الثلاثة ، لم يتكلم به أحد من الصحابة ، ولا التابعين لهم بإحسان ، ولا أحد من الأئمة المشهورين في العلم كمالك ، والثوري ، والأوزاعي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، بل ولا تكلم به أئمة اللغة والنحو ،

كالخليل وسيبويه ، وأبي عمرو بن العلاء ونحوهم » .

ويقول : « لم يوجد هذا في كلام أحد من أهل الفقه ، والأصول ، والتفسير ، والحديث ، ونحوهم من السلف . وهذا الشافعي هو أول من جرّد الكلام في أصول الفقه : لم يقسّم هذا التقسيم ، ولا تكلم بلفظ الحقيقة والمجاز ، وكذلك محمد بن الحسن له في المسائل المبنية على العربية كلام معروف في الجامع الكبير وغيره ولم يتكلم بلفظ الحقيقة والمجاز .

وكذلك سائر الأئمة لم يوجد لفظ المجاز في كلام أحد منهم إلا في كلام أحمد بن حنبل ، فإنه قال في كتاب (الرد على الجهمية) في قوله : (أنا ونحن) ونحو ذلك في القرآن : (هذا من مجاز اللغة) . يقول الرجل : إنا سنعطيك. إنا سنفعل ، فذكر أن هذا من مجاز اللغة .

وبهذا احتج على مذهبه من أصحابه من قال : إن في القرآن مجازاً . كالقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وأبي الخطاب ، وغيرهم .

وقد أنكر جماعة أن يكون في اللغة مجاز لا في القرآن ولا غيره».

قرأت هذا الذي كتبه ابن تيمية، وقرأت ما ساقه من أدلة على ما زعم. ولم أطمئن إلى ما كتب، وعزمت على دراسة الموضوع دراسة متأنية، ولكن انشغالي بإنجاز رسالة العالمية (الدكتوراه) صرفني بعض الشيء عن ذلك. وإن ظلت الرغبة في الكتابة فيه تعاودني رغم انشغالي بتأليف ما ألفت من كتب طبعت عدة طبعات.

ومنذ سنوات اطلعت على كتابي فضيلة الأستاذ العلامة الأزهري الدكتور عبد العظيم إبراهيم المطعني (المجاز عند الإمام ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار)، و(المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع، عرض وتحليل ونقد). والأخير يقع في أكثر من ألف صفحة

فوجدت الشيخ رحمه الله قد شفاني في كثير مما كنت أنتويه بل وأتى على بعض ما كنت سجلته في بطاقات مما نقلته من كتب (السلف) خلال سنوات طويلة مضت كما

مررت ببعض من نصوص السلف في أحد المراجع في موضوع صفات الله تعالى وتأويلها وإن كان هذا ليس مقصداً أساسيا للشيخ فيما كتب فمست الحاجة إلى أن أكتب فيه.

* * *

الفصل الأول

التأويل : معناه ومتى يجب

إن مسألة (تأويل بعض صفاته تعالى) يكاد لا يخلو منها كتاب من كتب العقيدة، ولا لسان من ألسنة العلماء خلال القرون الماضية ولكن ما المقصود بالتأويل؟

يقول الفيروزابادي في: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز:

«وأما التأويل فصرف معنى الآية بوجه تحتمله الآية، ويكون موافقًا لما قبله، ملائمًا لما بعده، واشتقاقه من الأوْل، وهو الرجوع. فيكون التأويل بيان الشيء الذي يرجع إليه معنى الآية ومقصودها.

والفرق بين التفسير والتأويل: أن التفسير هو البحث عن سبب نزول الآية والخوض في بيان موضع الكلمة من حيث اللغة، والتأويل هو التفحص عن أسرار الآيات والكلمات، وتعيين أحد احتمالات الآية، وهذا إنما يكون في الآيات المحتملة لوجوه مختلفة».

ويقول الشريف الجرجاني في التعريفات: «التأويل في الأصل: الترجيع، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقًا بالكتاب والسنة. مثل قوله تعالى ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ إن أراد به: إخراج الطير من البيضة، كان تفسيرًا، وإن أراد: إخراج المؤمن من الكافر، أو العالم من الجاهل، كان تأويلاً».

هذا هو التأويل الذي نعنيه، وهو استخدام إحدى القواعد التي ذكرها البلاغيون في مبحث (الحقيقة والمجاز) في فهم النص، وما يؤول إليه المعنى[1].

ولا يعني ذلك أننا سنقوم بتأويل كل نص وارد، بل إنما يستخدم عند الضرورة، وهي تعارض ظاهر النص القطعي الثبوت، الظني الدلالة مع دليل عقلي برهاني، أو يتعارض النص الظني الثبوت مع الدليل العقلي الصحيح. في هاتين الحالتين نرى وجوب التأويل.

وتفصيل ذلك أن مذهب أهل السنة يقوم على التآخي بين

---

(١) التأويل أعم من المجاز؛ لأنه قد يكون بالكناية مثلاً

الشرع والعقل؛ إذ لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول. وكيف تأتي المعارضة، والشرع كالشمس المنتشرة الضياء، والعقل كالبصر السليم؟ فهل يستغني طالب الاهتداء بأحدهما عن الآخر؟ كما يقول حجة الإسلام الغزالي.

١- إن النص قد يكون قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، وهو النص القرآني، أو النبوي المتواتر، وهذا النوع يستحيل أن يقع تعارض بينه وبين الدليل العقلي البرهاني، ولا يأتي الشرع بما يصادم العقل. فلا مجال هنا للتأويل.

٢- وقد يكون النص قطعي الثبوت، ظني الدلالة، يدل بظاهره على معنى يتعارض مع الدليل العقلي البرهاني.

وهذا النص هو الذي نرى تأويله، ليتفق مع العقل السليم، ويرتفع التعارض بين العقل، وظاهر النص.

فقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] يتعارض ظاهره مع الدليل العقلي الدال على استحالة حلول الله تعالى في شيء

من مخلوقاته. فوجب تأويله (إجمالاً) بصرف النص عن ظاهره، وتفويض معناه إلى الله تعالى.

أو تأويله (تفصيلاً) بأن المراد بالمعية: (العلم). ويشهد له بداية الآية ونهايتها.

والتأويل الإجمالي متفق عليه بين سلف الأمة وخلفها، وهو صرف الموهم عن ظاهره المحال عليه تعالى. والخلاف بعد ذلك في تعيين المراد، أو عدم تعيينه كما سبق.

ومثال الخبر: قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤].

فالنسيان صفة نقص تستحيل على الله تعالى، ولا يمكن أن نقول: لله نسيان يليق به!! فوجب تأويل النص إجمالاً، أو تفصيلاً؛ لأنه معارض للعقل، كما أنه يعارض الشرع، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وقال: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

٣- وقد يكون النص ظني الثبوت، سواء كانت دلالته

قطعية أو ظنية. وهذا يتصور فيما جاء بخبر الآحاد.

وهذا النوع إذا عارضه دليل عقلي صحيح، فلا بد من تأويل ما ثبت بخبر الآحاد، أو بفحص السند فحصًا جيدًا.

مثال ذلك قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فهل لله (ظل) يليق به، أو يؤول النص؟ ومعلوم أن الظل إنما يكون للأجسام.

وكذلك قوله ﷺ: «عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا» والملل من صفات النقص، فهل نثبت لله مللا يليق به، أو نؤول النص؟

وكذلك الحديث القدسي: «يا ابن آدم مرضت ولم تعدني ....».

والمرض نقص لا يليق بالله تعالى، فهل نثبت له مرضا يليق به، أو يجب تأويل النص؟ وإن قالوا: إن تأويل النصوص ظني، ولا يؤخذ بالظن في الاعتقاد، قلنا: وأنتم تأخذون بخبر الآحاد، وهو لا يفيد إلا الظن.

ومثال ما يجب فحص سنده فحصًا جيدًا حديث (أوعال)

وحديث «رأيت ربي جعدًا أمرد عليه حلة خضراء».

فقد أثبت الدليل العقلي استحالة الجسمية وتوابعها على الله تعالى.

هكذا يتحدد ما يدخله التأويل، وما لا يدخله[1].

وظل هذا الموضوع (التأويل) وقبوله أو رفضه خلال القرون الماضية وقفًا على العلماء المتخصصين في الدراسات الإسلامية والعربية، لا يبرح قاعات البحث والدراسة.

لكني لاحظت وبعد ظهور النفط (البترول) في دول

---

(١) وكذلك نرى أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) يؤول قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف ٥٠] فيقول: «نؤخرهم ونتركهم كما تركوا أمر ربهم، وجحدوا يوم القيامة» [مجاز القرآن ١/ ٢١٥]، وكذلك يفعل في قوله: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية ٣٤]، فيقول: «أي نترككم ونحرمكم من رحمته»، ولذلك نرى أهل السنة لا يؤولون في سائر العقائد مثل: رؤية الله تعالى يوم القيامة، والحوض، والصراط، والميزان، ونعيم الجنة، وعذاب النار، فهذه الأمور في حيز الجائز عقلًا، ولا يوجد معارض عقلي، فلا نحتاج إلى تأويل.

الخليج العربي ، وبعد طبع كميات ضخمة من كتب الإمام ابن تيمية ، والإمام ابن القيم ، ومن تبعهما وتوزيعها هدايا ، وخاصة على المنتمين للجماعات الإسلامية أن هذا الموضوع وأمثاله ، بدأ يخرج من قاعات دراسة وبحث المتخصصين إلى من ليس متخصصًا فيه ، بل يتناوله بعض العوام وأشباههم في المساجد ، ووسائل الإعلام ، ويحدث التنابز بالألقاب فقررت أن أعود إلى ما سبق أن جمعته من أقوال السلف خلال القرون الثلاثة المفضلة في مسألة التأويل عامة ، وتأويل صفات الله تعالى خاصة .

وعزمت أن تكون مراجعي من مؤلفات هذه القرون الأولى المفضلة أيضًا حسمًا للنزاع وسدًا لباب الجدال .

فلو كان النص موجودًا في كتب تفسير المتأخرين ، وموجودًا في تفسير الإمام الطبري مثلًا ، فإني أشير إلى موضعه من تفسيره ، لأنه من علماء القرن الثالث ، وثناء الإمام ابن تيمية على تفسيره وهكذا .

* * *

الفصل الثاني
تأويلات السلف في غير صفاته تعالى :

١ - ولنبدأ بسورة (الفاتحة) وبقوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ونقل معنى (الصراط) من تفسير الطبري . (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ط الحلبي :

« قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب ..

ثم تستعير العرب الصراط ، فتستعمله في كل قول وعمل ووصف باستقامة أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه .

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي ، أعني (اهدنا الصراط المستقيم) أن يكون معنيًا به . وفقنا للثبات على ما ارتضيته ، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ؛ لأن من وفق لما وفق له

من أنعم الله عليه من النبيين، والصديقين، والشهداء، فقد وفق للإسلام».

ثم يروي الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «وذكر القرآن فقال: هو الصراط المستقيم».

ثم يروي عدة روايات عن جابر بن عبد الله، وابن عباس أن المراد بالصراط المستقيم: الإسلام، تفسير الطبري ١/ ٧٣.

فتأمل كيف حدد أبو جعفر – رحمه الله – معنى الصراط في لغة العرب بأنه، الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، أي أنه اسم للمكان.

ثم بيّن أن العرب (تستعيره) لكل قول أو عمل يوصف بالاستقامة، أو الاعوجاج.

هكذا يستعمل هذا اللفظ (تستعيره) وهو المصطلح الذي اشتهر على ألسنة البلاغيين بعد ذلك.

ففي الآية (مجاز) وهو: استعارة تصريحية، فقد شبه الإسلام بالطريق المستقيم، وحذف المشبه، وصرح بالمشبه به.

وكما أوّل الطبري (الصراط المستقيم) في الفاتحة، أوّله في سورة هود في قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آية ٥٦] أوّله بأنه الحق، وذكر أربع روايات عن مجاهد، تنص على ذلك- التفسير ١٢/ ٦٠.

* * *

ومن سورة (البقرة):

٢- قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [آية ١٠] يذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى ت ٢٠٩ هـ في كتابه (مجاز القرآن) أن المراد بالمرض: النفاق والشك ١/ ٣٢.

ويقول أبو جعفر «والمرض الذي ذكر الله جل ثناؤه أنه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه هو شكهم في أمر محمد، وما جاء به من عند الله، وتحيّرهم فيه، فلا هم موقنون به إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكار إشراك».

ثم يروي الطبري – بسنده عن ابن عباس (في قلوبهم مرض) أي شك- (التفسير ١/ ١٢١).

ففي الآية استعارة تصريحية أيضًا.

٣ وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [٢/ ١٦].

يروي الطبري عن ابن عباس: «أخذوا الضلالة وتركوا الهدى».

ثم بيّن أن معنى الشراء: أخذ المشتري مكان الثمن المشترى به، فقالوا: المنافق والكافر قد أخذا مكان الإيمان الكفر، فكان ذلك منهما شراء للكفر والضلالة اللذين أخذاهما بتركهما ما تركا من الهدى، وكان الهدى الذي تركاه، هو الثمن الذي جعلاه عوضا من الضلالة التي أخذاها» [التفسير ١/ ١٣٧].

فالاستعارة واضحة في قوله: (اشتروا).

وفي قوله: (الضلالة بالهدى) فالمراد بهما: الكفر والإيمان، كما عزاه لابن عباس.

وأما قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ فلنقرأ ما كتبه الإمام أبو زكريا الفراء ت ٢٠٧هـ في كتابه (معاني القرآن) ط. عالم الكتب بيروت.

قال الفراء: «ربما قال قائل: كيف تربح التجارة، وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب: ربح بيعك، وخسر بيعك. فحسُن القول بذلك؛ لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعُلم معناه، ومثله من كلام العرب: هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد ٢١] وإنما العزيمة للرجال» [١/ ١٤].

ففي الآية مجاز عقلي، فقد أسند الربح إلى التجارة، والأصل إسناده إلى التُّجّار.

٤ وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [٢٨].

يقول أبو زكريا الفراء في بيان أن الاستفهام في الآية قد خرج عن حقيقته وهي طلب معرفة المستفهم عنه إلى معنى مجازي: «على وجه التعجب والتوبيخ، لا على الاستفهام المحض. أي ويحكم كيف تكفرون» [معاني القرآن ١/ ٢٣].

٥ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢٥٧].

يؤول الإمام الطبري الظلمات بالكفر، والنور بالإيمان، ويبين سبب استعارة كل لكل منهما: «وإنما جعل الظلمات للكفر مثلاً، لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان، والعلم بصحته، وصحة أسبابه.

(يخرجونهم من النور إلى الظلمات).

يعني بالنور الإيمان، على نحو ما بينا في الظلمات، ويعني بالظلمات ظلمات الكفر وشكوكه، الحائلة دون أبصار القلوب، ورؤية ضياء الإيمان، وحقائق أدلته وسبله» [التفسير ٣/ ٢١].

ثم يؤكد ما ذكره بروايات عن بعض التابعين.

* * *

ومن سورة آل عمران:

٦ - قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا

بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آية: ٧٢].

يذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن المراد بوجه النهار أول النهار [مجاز القرآن ١/ ٩٨] وينسب الطبري هذا التفسير لقتادة، والسدي، ومجاهد، وغيرهم [التفسير ٣/ ٣١١].

فقد شبه النهار بالإنسان، ووجهه أول ما يرى منه، ويعرف به، وحذف المشبه به، ورمز له بشيء من لوازمه على جهة الاستعارة المكنية.

وقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

فسّر أبو عبيدة الحبل بالعهد [مجاز القرآن ١/ ١٠١] وكذلك فعل الطبري، وأيد كلامه بروايات عن مجاهد، وقتادة، وعكرمة حيث قالوا: «بعهد من الله، وعهد من الناس» [التفسير ٤/ ٤٨].

ففي الآية استعارة تصريحية.

٨ - وقال تعالى ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

يقول الإمام الفراء: «والسجود في هذا الموضع اسم للصلاة، لا للسجود، لأن التلاوة لا تكون في السجود، ولا في الركوع» [معاني القرآن ١/ ٢٣١].

ففيها مجاز مرسل علاقته الجزئية، فالسجود جزء من الصلاة.

* * *

ومن سورة النساء:

٩ - قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ الآية انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه عن شرابه» [تفسير ابن كثير ١/ ٤٥٦].

أي أن الصحابة فهموا من الآية عموم الانتفاع بمال اليتيم، وليس خصوص الأكل، بل يشمل الشراب، واللبس، والسكن، ومثل ذلك، ففي الآية مجاز.

وهذا ما يذكره الإمام ابن القيم في قوله: «وفهمت الأمة من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ جميع وجوه الانتفاع من اللبس، والركوب، والمسكن، وغيرها» [إعلام الموقعين ١/ ٢١٨].

ثم يأتي ابن القيم بمثال شبيه له فيقول: «وفهمت - أي الأمة - من قوله تعالى ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ إرادة النهي عن جميع أنواع الأذى بالقول والفعل، وإن لم ترد نصوص أخرى بالنهي عن عموم الأذى، فلو بصق رجل في وجه والديه، وضربهما بالنعل، وقال: إني لم أقل لهما أف، لعدّه الناس في غاية السخافة، والحماقة، والجهل من مجرد تفريقه بين التأفيف المنهي عنه، وبين هذا الفعل قبل أن يبلغه نهي غيره.

ومنع هذا مكابرة للعقل، والفهم، والفطرة.

فمن عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة، وجب اتباع مراده

والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان، عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة، أو كتابة، أو بإيماءة، أو دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو عادة له مطردة لا يُخلّ بها، أو من مقتضى كماله، وكمال أسمائه وصفاته» [إعلام الموقعين ١/ ٢١٨].

وهذا كلام قيم لابن القيم رحمه الله يستحق الوقوف الطويل عنده.

وتأمل وصفه لمن يمنع المجاز بأنه مكابر للعقل، والفهم، والفطرة.

وكيف نصّ على بعض ما يوجب التأويل من دلالة عقلية، أو قرينة حالية، أو مقتضى كمال الله، وكمال أسمائه وصفاته.

* * *

ومن سورة الأعراف:

١٠ - قال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف ١٦٣]

ونَدَع المجال هنا للإمام الشافعي رضي الله عنه الذي وضع هذه الآية تحت عنوان (باب: الصنف الذي يُبيِّن سياقُه معناه) وكنا قد سجلنا منذ أكثر من عشرين عامًا في الجزء الأول من كتاب (عقيدتنا) أهمية ما كتبه الإمام الشافعي في هذا الموضع. وقلنا إنه تناول فيه: كيف يحدد السياق، أو ما يُسميه علماء البلاغة (القرينة) المراد من اللفظ، وهو ما اصطلح عليه علماء البلاغة بالمعنى المجازي؛ إذ المعنى الحقيقي لا يحتاج إلى قرينة، وكلامه في غاية النفاسة».

هذا ما سجلناه يومها، والآن نقرأ ما كتبه رضي الله عنه بنصه:

«فابتدأ جل ثناؤه ذكر الأمر بمسألتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآية. دلَّ على أنه إنما أراد أهل القرية؛ لأن القرية لا تكون عاديةً، ولا فاسقة بالعدوان في السبت ولا غيره، وأنه إنما أراد بالعدوان.

أهل القرية الذين بلاهم بما كانوا يفسقون.

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء ١١-١٢].

وهذه الآية في مثل معنى الآية قبلها، فذكر قصم القرية، فلما ذكر أنها ظالمة بان للسامع أن الظالم إنما هم أهلها، دون منازلها التي لا تظلم، ولما ذكر القوم المنشئين بعدها: ذكر إحساسهم البأس عند القصم، أحاط العلم أنه إنما أحسَّ البأس من يعرف البأس من الآدميين».

ثم قال الشافعي: «الصنف الذي يدل لفظه على باطنه دون ظاهره».

قال الله تبارك وتعالى وهو يحكي قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف ٨١-٨٢].

فهذه الآية في مثل معنى الآيات قبلها، لا تختلف عند

أهل العلم باللسان: أنهم إنما يخاطبون أباهم بمسألة: أهل القرية، وأهل العير، لأن القرية والعير لا ينبئان عن صدقهم» [الرسالة ٦٢-٦٤].

وقد فطن الشيخ (المطعني) أثابه الله إلى الحكمة في فصل الإمام الشافعي الآية الثالثة عن الآيتين الأوليين: فإن الأوليين اشتملتا على قرائن لفظية تدل على أن المراد من القرية: أهلها، فسباقها هو الذي يدل، وأما الثالثة: فقرينتها حالية معنوية، لأن القرية والعير لا يُسألان، ولا يُجيبان. فلفظها يدل على باطنها دون ظاهرها، هذه جهود الإمام الشافعي الذي زعم ابن تيمية أنه لا يعرف المجاز!!

وها هو الإمام أبو زكريا الفراء المعاصر للإمام الشافعي يذكر قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد ١٣]، ويقول: «يريد التي أخرجتك أهلها إلى المدينة» [معاني القرآن ٣/ ٥٩].

ففي الآية مجاز عقلي.

* * *

ومن سورة الأنعام :

١١ قال تعالى ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ [١٢٢].

يقول الإمام الفراء : « أي كان ضالاً فهديناه ، وقوله « وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس » يعني : إيمانه » [معاني القرآن ١/ ٣٥٣].

ففي الآية ثلاث استعارات في ميتًا ، وأحييناه ، ونورًا

* * *

ومن سورة التوبة :

١١ - قال تعالى ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾ [٦٧].

يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى : « يقبضون أيديهم يمسكون أيديهم عن الخير والصدقة يقال : قبض فلان عنا يده ، أي منعنا » [مجاز القرآن ١/ ٢٦٣].

فهذا مجاز مرسل علاقته السببية .

ومن سورة يونس :

١٣ قال تعالى ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ [٦٧]

قال أبو عبيدة : « والعرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل ، والمعنى أنه مفعول ، لأنه ظرف يفعل فيه غيره ؛ لأن النهار لا يبصر ، ولكنه يبصر فيه الذي ينظر ، وفي القرآن : (في عيشة راضية) وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها » [مجاز القرآن ١/ ٢٧٩].

فهو مجاز عقلي أسند فيه الفعل غير ما هو له

ومن سورة الإسراء :

١٤ قال تعالى ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ [٢٩].

قال الطبري : « هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى للممتنع من الإنفاق في الحقوق التي أوجبها في أموال ذوي الأموال ، فجعله كالمشدودة يده إلى عنقه الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء » [التفسير ١٥/ ٧٦].

وقال معمر بن المثنى: «مجازه في موضع قولهم ألا تمسك عما يعني لك أن تدنو من الحق، وهو مثل وتشبيه» [إعجاز القرآن ١/ ٢٧٥].

١٥ - وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [٧٢].

قال الطبري: «ذلك من عمى القلب الذي يقع فيه التفاوت. وإنما عُني به عمى قلوب الكفار عن حجج الله التي قد عاينتها أبصارهم» [التفسير ١٥/ ١٢٩].

فصرفه الطبري عمى القلب، لأن عمى البصر لا يقال فيه: هذا أعمى من ذاك.

١٦ - وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [٧٨].

قال الفراء: «يعني صلاة الفجر، تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار» [معاني القرآن ٢/ ١٢٩].

* * *

ومن سورة الشعراء:

١٧ - قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ

أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [آية: ٤].

قال الإمام الطبري: «فظلت سادتهم وكبراؤهم للآية خاضعين» [التفسير ١٩/ ٥٩].

وقال الإمام الفراء: «وفي ذلك وجوه كلها صواب: أولها أن تجعل الأعناق الرجال الكبراء» [معاني القرآن ٢/ ٢٧٧].

فكل من مجاهد، والفراء، والطبري، أوّل الآية على المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية.

* * *

ومن سورة سبأ:

١٧ - قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [آية: ٣٣].

قال الفراء: «المكر ليس لليل ولا للنهار، وإنما المعنى: بل مكركم بالليل والنهار. وقد يجوز أن نضيف الفعل إلى الليل والنهار، ويكونا كالفاعلين، لأن العرب تقول: نهارك صائم، وليلك قائم، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار، وهو

في المعنى للآدميين، كما تقول: نام ليلك، وعزم الأمر، وإنما عزمه القوم، فهذا مما يعرف معناه، فتتسع به العرب» [معاني القرآن ٢/ ٣٦٣].

وقال الطبري: «(بل مكر) كم بـ (الليل والنهار) صدّكم عن الهدى ﴿إذ تأمروننا أن نكفر بالله﴾ ونجعل له أمثالا وأشباها في العبادة والألوهة، فأضيف المكر إلى الليل والنهار. والمعنى ما ذكرنا من مكر المستكبرين بالمستضعفين في الليل والنهار، على تساع العرب في الذي قد عُرف معناها فيه من منطقها، من نقل صفة الشيء إلى غيره، فتقول للرجل: يا فلان، نهارك صائم، وليلك قائم» [التفسير ٢٢/ ٩٨]. ففي الآية مجاز عقلي.

* * *

ومن سورة فاطر:

١٨- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ

فِي الْقُبُورِ﴾ [١٩- ٢٣].

قال الإمام الفراء: «والأعمى ها هنا الكافر، والبصير: المؤمن ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ قال: الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ قال: الظل: الجنة، والحرور: النار ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ قال: الأحياء: المؤمنون، والأموات: الكفار» [معاني القرآن ٢/ ٣٦٩].

وقال الإمام الطبري مثل ذلك، وعزاه لابن عباس، ولبعض التابعين- [التفسير ٢٢/ ١٢٨].

وذكر الطبري عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ «كذلك الكافر لا يسمع، ولا ينتفع بما يسمع» [٢٢/ ١٣٠].

ففي الآيات مجموعة من الاستعارات.

* * *

ومن سورة يس:

١٩- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ

بل الأذقان فهم مقمحون﴾ [يس: ٨]

قال القرطبي: «فأيمانهم مجموعة بالأغلال في أعناقهم، فكنى عن الأيمان ولم يجر لها ذكر لمعرفة السامعين بمعنى الكلام، وأن الأغلال إذا كانت في الأعناق، لم تكن إلا وأيدي المغلولين مجموعة بها إليها، فاستغنى بذكر كون الأغلال في الأعناق من ذكر الأيمان»

وروي عن ابن عباس: «هو كقول الله ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ يعني بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير» [التفسير ٢٢/ ١٥٠]

* * *

الفصل الثالث
صفات الله تعالى الخبرية

١- الوجه:

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بصيغة الجمع (٣٨) مرة، لا علاقة لها بذاته تعالى، وورد بصيغة الإفراد (٣٤) مرة، المسند منها إلى الله تعالى (١١) مرة.

منها:

(أ) قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الوجه عبارة عنه تعالى» [تفسير القرطبي ٦٣٣٥].

وقال الشوكاني: «الوجه عبارة عن ذاته سبحانه ووجوده» [فتح القدير ٥/ ١٣٦].

(ب) وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: (فثم وجه الله) قال: قبلة الله» [فتح القدير ١/ ١٣٢ والدر المنثور ١/ ٢٦٧]

وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، والترمذي، والبيهقي في سننه عن مجاهد ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله» [الدر المنثور ١/ ٢٦٧].

وحكى المزني عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية: «يعني والله أعلم: فثم الوجه الذي وجهكم الله إليه» [الأسماء والصفات ٤٤٣ ط الكردي].

ويقول ابن تيمية: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي قبلة الله ووجهة الله. هكذا قال جمهور السلف» [الفتاوى ٢/ ٤٢٩].

ويقول في موضع آخر عن هذه الآية: «ليست من آيات الصفات» [الفتاوى ٦/ ١٦].

(ص) وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

روى الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ثلاث روايات عن ابن عباس، ومجاهد، وسفيان في معنى ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾:

«إلا ما أريد به وجهه» [٦/ ٤٤٧].

وقال الإمام البخاري في صحيحه: «كل شيء هالك إلا وجهه: إلا ملكه، ويقال: إلا ما أريد به وجه الله».

قال ابن حجر في شرحه: «قوله إلا وجهه: إلا ملكه»، وفي رواية النسفي. وقال معمر، فذكره. ومعمر هذا هو أبو عبيدة بن المثنى. وهذا كلامه في كتابه (مجاز القرآن) لكن بلفظ: «إلا هو» وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية. وكذا ذكره الفراء، وقال ابن التين: قال أبو عبيدة: إلا وجهه أي جلاله. وقيل: إلا إياه، تقول: أكرم الله وجهك. أي أكرمك الله» [الفتح ٨/ ٣٦٤].

وما ذكره شارح البخاري مذكور في (جامع البيان) (٢٠/ ١٢٧) وفي الدر المنثور ٦/ ٤٤٧.

وقال ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ: «ومما تُزاد في الكلام، (الوجه) يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام ٥٢] أي يريدونه بالدعاء، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

[القصص: ٨٨] أي: إلا هو، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] أي: فثم الله، و﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩] أي: لله» [تأويل مشكل القرآن ص ٢٥٤].

وينقل ابن تيمية في تفسير هذه الآية عن أبي العالية قوله «إلا ما أريد به وجهه» وعن جعفر الصادق: «إلا دينه» الفتاوى [٢/ ٤٢٧].

ويقول ابن تيمية في موضع آخر: «المعنى: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه» ويقول: «إن هذا هو المأثور، والمنقول عن السلف والمفسرين» [الفتاوى ٢/ ٢٨].

(د) وقال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٨، ٣٩].

قال الطبري: «قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ يقول تعالى ذكره: إيتاء هؤلاء حقوقهم التي ألزمها الله

عباده خير للذين يريدون الله بإتيانهم ذلك» [التفسير ٢١/ ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

قال الطبري: «طلب رضا الله والقربة إليه» [التفسير ٢٩/ ٢١٠].

هكذا ترى أن السلف ابتداء بحبر الأمة الإمام ابن عباس رضي الله عنهما ومرورا بعلماء القرون الثلاثة: مجاهد، وسفيان الثوري، وجعفر الصادق، وأبي العالية، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، والفراء، والبخاري، وابن قتيبة، والطبري، وغيرهم يؤولون (الوجه).

وهكذا يؤول ابن تيمية (الوجه) ويعترف بأن هذا هو «المأثور والمنقول عن السلف والمفسرين» [الفتاوى ٢/ ٢٨].

* * *

٢- العين :

ورد لفظ (العين) في القرآن الكريم مفردا ومثنى وجمعا (٥٧) مرة ، المسند منها إلى الله تعالى (٥) مرات ، إحداها بالإفراد ، وبقيتها بالجمع (أعين) . ولنستمع لنرى تأويل السلف لها :

(أ) قال تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه : ٣٩] .

قال الإمام الشوكاني : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ أي : ولتربى وتغذى بمرأى مني . يقال : صنع الرجل جاريته إذا رباها ، وصنع فرسه ، إذ داوم على علفه والقيام عليه ، وتفسير على عيني بمرأى مني صحيح . قال النحاس : وذلك معروف في اللغة .

وقال أبو عبيدة ، وابن الأنباري : إن المعنى : لتغذى على محبتي وإرادتي ، تقول : أتخذ الأشياء على عيني أي على محبتي ، قال ابن الأنباري : العين في هذه الآية يقصد بها قصد الإرادة والاختيار من قول العرب : غدا فلان على عيني ، أي على المحبة مني » [فتح القدير ٣/ ٣٦٥] .

وقال الإمام الطبري : « اختلف أهل التأويل في تأويل ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ثم قال : فأولى التأويلين به التأويل الذي تأوله قتادة وهو : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ولتغذى على عيني . ألقيت عليك المحبة مني ، وعنى بقوله ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ بمرأى مني ومحبة وإرادة » [تفسير الطبري ١٦/ ١٦٣] .

(ب) وقال تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود : ٣٧] .

روى الإمام البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال : بعين الله تبارك وتعالى » [الأسماء والصفات ٤٤٧ ط. الكردي] .

ويقول البيهقي : « والجمع فيها على معنى التعظيم » السابق .

وما ذكره البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ذكره الإمام الطبري في تفسيره عنه وعن قتادة (١٢/ ٣٤) .

(ج) وقال تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون : ٢٧] .

يقول ابن جرير: «يقول: فقلنا له حين استنصرنا على كفرة قومه: اصنع الفلك وهي السفينة (بأعيننا) يقول: بمرأى منا ومنظر (ووحينا) يقول: وبتعليمنا إياك صنعتها» [التفسير ١٨/ ١٧].

(د) وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣-١٤].

قال الطبري: «وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه: تجري السفينة التي حملنا نوحًا فيها بمرأى منا ومنظر، وذُكر عن سفيان في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول: بأمرنا» [جامع البيان ٢٧/ ٩٤].

هـ- وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٩].

يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واصبر لحكم ربك يا محمد الذي حكم به عليك، وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالاته ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ يقول جل ثناؤه: فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك،

ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين» [التفسير ٢٧/ ٤٠].

هكذا أوّل السلف كل الآيات القرآنية التي ورد بها العين والأعين.

* * *

٣- اليد :

ورد ذكر (اليد) في القرآن الكريم (١٠٣) مرة، المسند منها إلى الله تعالى (١٥) مرة، بعضه جاء بصيغة الإفراد، وبعضه جاء بصيغة التثنية، وبعضه بصيغة الجمع[٢] ومن ذلك :

أ- قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال الإمام ابن جرير الطبري : «وفي قوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وجهان من التأويل :

أحدهما : يد الله فوق أيديهم عند البيعة؛ لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيه ﷺ.

والآخر : قوة الله فوق قوتهم في نصرة رسوله ﷺ؛

---

(٢) قال ابن حجر في شرحه لصحيح البخاري : «واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى ما بين حقيقة ومجاز». فتح الباري ١٣/ ٤٠٥.

لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدو» [جامع البيان ٢٦/ ٧٦].

ب- قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية : «نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه» [المرجع السابق ٢٦/ ١١٦].

ج- قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الإمام الطبري : «يقول تعالى ذكره : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ من بني إسرائيل ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ يعنون أن خير الله ممسك، وعطاءه محبوس عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى ذكره في تأديب نبيه ﷺ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾.

وإنما وصف تعالى ذكره اليد بذلك والمعنى : العطاء؛

لأن عطاء الناس، وبذل معروفهم الغالب بأيديهم، فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضا إذا وصفوه بجود وكرم، أو ببخل وشح وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه.

فخاطبهم الله بما يتعارفونه، ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ يعني بذلك أنهم قالوا: إن الله يبخل علينا، ويمنعنا فضله، فلا يفضل كالمغلولة يده، الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء، ولا بذل معروف، تعالى الله عما قال أعداء الله فقال الله مكذبهم، ومخبرهم بسخطه عليهم ﴿غلت أيديهم﴾ جامع البيان ٦/ ٢٩٩.

د- قوله تعالى ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين﴾ [ص: ٧٥]

قال الإمام الشوكاني: «أي ما صرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه من غير واسطة، وأضاف خلقه إلى نفسه تكريمًا له وتشريفًا، مع أنه سبحانه خالق كل شيء،

كما أضاف إلى نفسه الروح، والبيت، والناقة، والمساجد.

قال مجاهد: اليد هنا بمعنى التأكيد والصلة مجازًا. كقوله ﴿ويبقى وجه ربك﴾.

وقيل: أراد باليد القدرة. يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان، أي قدرة.

ومنه قول الشاعر:

تحمّلتُ مِنْ زلفاء ما ليس بُدٌّ
ولا للجبال الراسيات يدان

وقيل: التثنية في اليد للدلالة على أنها ليس بمعنى القوة والقدرة، بل للدلالة على أنهما صفتان من صفات ذاته سبحانه» [فتح القدير ٤/ ٤٤٥].

مع ملاحظة أن التثنية لا تدل دائمًا على حصول العدد بدليل قوله تعالى ﴿فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ [المجادلة: ١١].

ومع ملاحظة ما قاله الإمام الرازي: «لو كان تخليق آدم باليدين يوجب مزيد الاصطفاء، لكان تخليق البهائم والأنعام

بالأيدي يوجب رجحانها على آدم في هذا الاصطفاء، لقوله تعالى في صفة تخليقها: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [أساس التقديس ١٥٧].

مع ملاحظة أن إثبات صفة أخرى مؤثرة في خلق آدم غير صفة القدرة التي يكون بها الإيجاد والإعدام مما لا دليل عليه، ولا تثبت صفاته تعالى إلا بالدليل.

هكذا ينقل الطبري عن ابن زيد تفسيره للفظ (الأيدي) من سورة (ض) بمثله من سورة (الذاريات).

فهل لنا - اقتداء بالإمام عبد الرحمن بن زيد ت ١٨٢هـ أن نحمل الآية الثالثة على المعنى نفسه، وهي قوله تعالى في سورة (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١] والآيات الثلاثة تكرر فيها لفظ (الأيدي) جمعًا، وقد أوّل السلف الأيدي بالقوة في آيتين منها؟

هـ- قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: والسماء رفعناها سقفًا بقوة ... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل».

ثم ساق الطبري ست روايات كلها تنص على لفظ (بقوة) عن ابن عباس، وعن مجاهد، وعن قتادة، وعن منصور، وعن ابن زيد، وعن سفيان [التفسير ٢٧/ ٧].

ويقول الإمام البيهقي: «قال الله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ يعني: بقوة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله (بأيد) قال: بقوة، وعن مجاهد في قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ قال: يعني بقوة» [الأسماء والصفات ٢٥٣ ط. الكردي].

و- ولفظ (الأيدي) بالجمع ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات: في سورة (الذاريات) في الآية السابقة، والثانية في سورة (ص) وهي ليست داخلة في موضوعنا، لكننا نريد أن نقرّب منحى الإمام الطبري عنها، وهي قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

قال ابن جرير: «يعني بقوله: (ذا الأيدي): ذا القوة

والبطش الشديد في ذات الله، والصبر على طاعته».

وساق عدة روايات عن ابن عباس والتابعين تؤكد ما قال.

ثم قال: «قال ابن زيد: قوله ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ قال: القوة في عبادة الله، الأيد: القوة، وقرأ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ قال: بقوة» [جامع البيان ٢٣/ ١٣٦].

ر- وهناك ثلاث آيات قرآنية تتحدث عن نعمة إرسال الرياح، وكيف أنه تعالى أرسلها ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

وإذا تأملنا النص، وجدنا أن الأيدي أضيفت في الآيات الثلاثة إلى صفة رحمته تعالى، وليس إلى ذاته جل في علاه.

ح- ورد ذكر (اليمين) و(القبضة) في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال الإمام الشوكاني: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ القبضة في اللغة: ما قبضت عليه بجميع كفك.

فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها في مقدوره، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، كما يقولون: هو في يد فلان، وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه، وإن لم يقبض عليه.

وكذا قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فإن ذكر اليمين للمبالغة في كمال القدرة، كما يطوي الواحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه، واليمين في كلام العرب، قد تكون بمعنى القدرة والملك.

قال الأخفش: «بيمينه» يقول: في قدرته، نحو قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي ما كانت لكم قدرة عليه، وليس الملك لليمين دون الشمال وسائر الجسد، ومنه قوله سبحانه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي بالقوة والقدرة» [فتح القدير ٤/ ٤٧٥].

والأخفش المذكور شيخ القراء وشيخ لغة العرب ٢٠١-٢٩١ هـ.

ط- وورد ذكر (اليمين) دون ذكر القبضة في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٥].

قال الإمام البيهقي: «قال الفراء: اليمين القوة والقدرة.. وقال في قوله ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ بالقدرة والقوة» [الأسماء والصفات ٤٦٥ ط الكردي].

* * *

٤- الجنب :

لم يرد لفظ (الجنب) في القرآن الكريم مضافا إلى الله تعالى إلا في آية واحدة. وهي قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

قال الإمام الطبري: «قوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل:

عن مجاهد في قوله: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ يقول: في أمر الله.

عن السدي قال: تركت من أمر الله» [جامع البيان ٢٤/ ١٩].

وما نسبه الطبري إلى مجاهد ذكره البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٦١= ٤٩٥ ط الكردي).

وقال الشوكاني: «معنى ﴿مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي على ما فرطت في طاعة الله. قاله الحسن.

وقال الضحاك: يعني على ما فرطت في ذكر الله، ويعني به القرآن والعمل به.

وقال أبو عبيدة: ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي في ثواب الله.

وقال الفراء: الجنب القرب والجوار، أي في قرب الله وجواره، ومنه قوله: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾، والمعنى على هذا: في طلب جواره وقربه، وهو الجنة، وبه قال ابن الأعرابي.

وقال الزجاج: أي فرطت في الطريق الذي هو طريق الله من توحيده، والإقرار بنبوة رسول الله ﷺ، وعلى هذا فالجنب يعني الجانب، أي قصّرت في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله.

ومنه قول الشاعر:

للناس جنب وللأمير جنب

أي للناس من جانب، والأمير من جانب» [فتح القدير ٤/ ٤٧١].

* * *

٥- الساق:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣].

روى الحافظ ابن منده في كتابه (الرد على الجهمية) بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: «يكشف عن أمر عظيم، ثم قال: قد قامت الحرب على ساق».

وذكر ابن منده رواية أخرى عنه قال: «شدة الآخرة».

ورواية ثالثة عن ابن عباس: «عن شدة الأمر».

وذكر رواية أخرى أن ابن عباس كان يقرأ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ بالتاء المفتوحة، أي تكشف القيامة عن شدة شديدة» [ص ٣٨- ٣٩].

وقد روى الإمام الطبري عن ابن عباس بهذا المعنى إحدى عشرة رواية- جامع البيان ٢٩/ ٣٨.

وقال الإمام ابن قتيبة (٢١٣- ٢٧٦ هـ) في كتابه،

(تأويل مشكل القرآن). «فمن الاستعارة في كتاب الله قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي عن شدة من الأمر، كذلك قال قتادة. وقال إبراهيم: عن أمر عظيم.

وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه، شمّر عن ساقه، فاستعيرت (الساق) في موضع الشدة» [١٣٧].

وقد جمع الإمام البيهقي تأويلات السلف هذه وغيرها للآية الكريمة في (الأسماء والصفات) ٤٧٨ – ٤٨٢ ط. الكردي.

وانظر (معاني القرآن) للفراء حيث يقول: «يوم يكشف عن ساق» يريد: القيامة والساعة لشدتها» [٣/ ١٧٧].

* * *

٦- الصمد:

قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص ١- ٢].

قال الإمام الفخر الرازي: «ذكر بعضهم في تفسير (الصمد) أنه: الجسم الذي لا جوف له، ومنه قول من يقول لسداد القارورة: الصماد، وشيء مصمد، أي صلب ليس فيه رخاوة. قال ابن قتيبة: وعلى هذا التفسير: الدال مبدلة من التاء.

واحتج قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في إثبات أنه جسم، وهذا باطل. لأن كونه أحداً ينافي كونه جسماً، فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام العبيطة، وتعالى الله عن ذلك» [أساس التقديس ١١٧].

وقال الإمام الطبري: «قوله (الله الصمد) يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له» [التفسير ٣٠/ ٣٤٤].

ويذكر ابن جرير من آراء المفسرين لهذا اللفظ (الصمد):

« الذي ليس بأجوف، ولا يأكل ولا يشرب ».

« هو الذي لا يخرج منه شيء ».

« هو الذي لم يلد ولم يولد ».

« هو السيد الذي قد انتهى سؤدده ».

« هو الباقي الذي لا يفنى ».

وذكر الإمام الرازي في تفسيره مجموعة كبيرة من آراء العلماء في تفسير هذا اللفظ (الصمد) نقتطف من بينها بعض تأويلات السلف:

« قال ابن مسعود والضحاك: الصمد، هو السيد الذي قد انتهى سؤدده.

وقال السدي: الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب.

وقال الحسين بن الفضل البجلي: الصمد هو الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

وقال قتادة: لا يأكل ولا يشرب، وهو يطعم ولا يطعم، الباقي بعد فناء خلقه.

وقال الحسن البصري: الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال، كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش، ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي، وهو الآن كما كان »

وقال أبي بن كعب: « الذي لا يموت ولا يورث، وله ميراث السموات والأرض ».

وقال سعيد بن جبير: « إنه الكامل في جميع صفاته، وفي جميع أفعاله » [٣٢/ ١٨٢].

وقال الإمام القرطبي: « الله الصمد: أي الذي يصمد إليه في الحاجات، كما روى الضحاك عن ابن عباس، قال: الذي يصمد إليه في الحاجات، كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ قال أهل اللغة: الصمد: السيد الذي يُصمد إليه في النوازل والحوائج » [الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٤٥]

هذه طائفة كبيرة من أقوال السلف في تأويل هذا اللفظ الكريم (الصمد) وكلها ينزه الله عن التجسيم وينزهها جل في علاه.

٧- الفوقية :

قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

قال الإمام الطبري في تفسير الآية الأولى: «يعني بقوله: (القاهر) المذلل المستعبد خلقه، العالي عليهم، وإنما قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه وصف نفسه تعالى بقهره إياهم، ومن صفة كل قاهر شيئًا أن يكون مستعليا عليه

فمعنى الكلام إذن: والله الغالب عباده، المذللهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ يقول: والله الحكيم في علوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها، الذي لا يخفى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمة دخل» [جامع البيان ٧/ ١٦١].

وقد سبق الطبري أبو زكريا الفراء ت ٢٠٧ هـ حيث قال في هذه الآية: «كل شيء قهر شيئًا فهو مستعلٍ عليه» [معاني القرآن ١/ ٣٢٩].

ويقول ابن جرير في تفسير الآية الثانية: «يقول تعالى ذكره ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلل المغلوب عليه لذلته» [التفسير ٧/ ١٦].

ويقول في تفسير قول فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وإنا عالون عليهم بالقهر. أي بقهر الملك والسلطان.

وقد بينا أن كل شيء عال بقهر وغلبة على شيء، فإن العرب تقول: هو فوقه» [التفسير ٩/ ٢٦].

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]. «هو إله من في السموات، وإله من في الأرض» [الرد على الزنادقة والجهمية ص ٩٤].

فالفوقية فوقية قهر، ومكانة، ومنزلة، وليست فوقية مكان وجهة.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

يقول الطبري في بيان معنى اسمه (العليّ) سبحانه: «العليّ: الفعيل من قولك: علا يعلو علوًا، إذا ارتفع، فهو عالٍ وعليّ، والعليّ: ذو العلو والارتفاع على خلقه بقدرته» [التفسير ٣/ ١٣].

ويذكر الطبري مثل هذا التفسير للفظ (العلي) في تفسير آية سورة (الشورى) وهي قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [آية ٤]، فيقول: «هو ذو علو وارتفاع على كل شيء، والأشياء كلها دونه؛ لأنهم في سلطانه، جارية عليهم قدرته، ماضية فيهم مشيئته» [التفسير ٢٥/ ٧].

فهو علو قدرة وقهر وسلطان.

وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

قال الإمام القرطبي: «قال ابن عباس: أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه» [الجامع لأحكام القرآن ٦٦٩٤].

ونذكر هنا ما قاله القاضي عياض رحمه الله، ونقله الإمام النووي في شرحه لصحيح الإمام مسلم بمناسبة هذه الآية:

قال: «لا خلاف بين المسلمين قاطبة: فقيههم، ومحدثهم، ومتكلمهم، ونُظّارهم، ومقلدهم أن الظواهر الواردة بذكر الله تعالى في السماء، كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ونحوه، ليست على ظاهرها، بل متأولة عند جميعهم» [٥/ ٢٤].

• • •

٨- الاستواء:

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه ٥].

قال الإمام البخاري في صحيحه: «قال مجاهد: استوى: علا على العرش» [الفتح ١٣/ ٤١٣].

ومن المعاني التي ذكرها الإمام الطبري للاستواء قال: «الاستواء هو العلو، والعلو هو الارتفاع، وممن قال ذلك الربيع بن أنس» [جامع البيان ١/ ١٩١].

وقال الإمام القشيري «سئل ذو النون المصري (ت ٢٤٥ هـ) عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال: أثبت ذاته، ونفى مكانه، فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه، كما شاء سبحانه.

وسئل الشبلي (٢٤٧-٣٣٤ هـ) عن قوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ فقال: الرحمن لم يزل، والعرش بالرحمن استوى.

وقال جعفر الصادق: من زعم أن الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء، فقد أشرك؛ إذ لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصورًا، ولو كان من شيء، لكان محدثًا» [الرسالة القشيرية ١/ ٤٠].

٩- المعية:

تكرر لفظ «مع» متصلاً بالله تعالى في عدة آيات قرآنية ربما أوهمت أن ذاته تعالى متصلة بذات مخلوقاته المذكورة في كل آية نعرضها فيما يلي لنرى تأويل السلف لها:

قال الإمام القُشيري رحمه الله: «سئل ابن شاهين الجنيد (ت٢٩٨هـ) عن معنى «مع» فقال: مع على معنيين:

مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. [الرسالة ١/ ٤٠].

وقد وقف الإمام الطبري مع أغلب الآيات القرآنية هذه يؤولها كما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة ١٦٣].

قال رحمه الله: «وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فإن تأويله: فإن الله ناصره وظهيره، وراضٍ بفعله. كقول القائل افعل يا فلان كذا وأنا معك. يعني: إني ناصرك على فعلك ذلك، ومعينك عليه». [التفسير ٢/ ٣٨].

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قال رحمه الله: «يعني جل ثناؤه: واعلموا أن الله يحب المتقين الذين يتقونه بأداء فرائضه، وتجنب محارمه». [التفسير ٢/ ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال رحمه الله: «وإن الله لمع من أحسن من خلقه فجاهد فيه أهل الشرك مصدقًا رسول الله فيما جاء به من عند الله بالعون له، والنصرة على من جاهد من أعدائه». [التفسير ٢١/ ١٥].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

قال رحمه الله: «وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم، يعلمكم، ويعلم أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سماواته السبع». [التفسير ٢٧/ ٢١٦].

ويروي الطبري في تفسيره عن الضحاك في تفسير: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

قال: هو فوق العرش، وعلمه معهم. [التفسير ٢٨/ ١٢].

هكذا أوّل السلف المعية، ويفاجئ القارئ بمؤوّل آخر، لكنه ليس من السلف، إنه الذي حارب التأويل، وأنكر المجاز في اللغة والقرآن الكريم، وشنّع هو وأتباعه على المؤولين، ورموهم بما لا يجوز، ذلك المؤوّل هو الإمام ابن تيمية رحمه الله.

أمامي الآن المجلد الخامس من مجموع فتاويه، وفيه: «فصل» في الجمع بين علو الرب عزّ وجلّ، وبين قربه من داعيه وعابديه، جاء فيه:

«والمعية معيتان: عامة، وخاصة.

فالأولى كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

والثانية: كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات».

قال: «وقد افترق الناس في هذا المقام أربع فرق»، فذكر الثلاثة الأولى، ثم قال: «وأما القسم الرابع: فهم سلف الأمة وأئمتها أئمة العلم والدين، من شيوخ العلم والعبادة: فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله، من غير

تحريف للكلم، أثبتوا أن الله تعالى فوق سمواته، وأنه على عرشه، بائن من خلقه، وهم منه بائنون، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه.

ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية.

وهو أيضًا قريب مجيب، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم.

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، فهو سبحانه مع المسافر في سفره، ومع أهله في وطنه.

ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم» [٥/ ٢٢٦- ٢٣١].

هكذا نرى ابن تيمية:

١ - يصرف لفظ «مع» عن معناه الظاهر المتبادر الذي يعني اختلاط الذوات، واجتماعها في مكان.

٢ - يذكر معنيين آخرين للمعيّة بعد أن قسّمها إلى: عامة وخاصة يتناسبان مع تنزيه الله تعالى عن الجسمية وتوابعها.

٣ - لا يكتفي بتأويله هو، بل أكّده بنسبته إلى سلف الأمة وأئمتها أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة.

وليس هذا هو الموضع الوحيد الذي أوّل فيه ابن تيمية، بل له مواضع كثيرة اضطر فيها إلى استعمال ما حرّمه على غيره، وشنّ من أجله هذه الحرب التي ما زالت مستمرة على أيدي أتباعه، بل ويعترف أن هذا التأويل هو مذهب السلف، بل وينقل بنفسه أقوالهم، اقرأ ما كتبه في موضع آخر.

«ثبت عن السلف أنهم قالوا: هو معهم بعلمه، وقد ذكر ابن عبد البر وغيره. أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولم يخالفهم فيه أحد يعتد بقوله، وهو مأثور عن ابن عباس، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل، وغيرهم». [الفتاوى ٥/ ٤٩٥].

ثم راح ابن تيمية ينقل نصوص هؤلاء العلماء الخمسة التي تؤيد تأويله للمعيّة.

وأما تقسيمه المعيّة إلى: معيّة عامة، ومعيّة خاصة، وقوله: «فلو كان المراد أنه بذاته مع كل شيء لكان التعميم يناقض التخصيص، فإنه قد عُلم أن قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ

الله معنا﴾ أراد به تخصيصه وأبا بكر دون عدوهم من الكفار.

وكذلك قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ خصهم بذلك دون الظالمين والفجار.. فامتنع أن يكون قوله ﴿وهو معكم﴾ يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق، وأيضًا فإنه افتتح الآية بالعلم، وختمها بالعلم، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم بهم.. ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه، فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد». [الفتاوى ٥/٤٩٧].

أقول: إن تقسيمه للمعية هكذا ليس من بنات أفكاره، فقد صدَّرنا ما كتبناه في هذا الموضوع بنص الإمام الجنيد رحمه الله، وهو قبله بقرون، وفيه هذا التقسيم.

* * *

١٠- القرب:

ورد وصف الله تعالى بالقرب في عدة آيات قرآنية منها.

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق: ١٦].

قال ابن جرير الطبري: «وقد اختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ فقال بعضهم: معناه نحن أملك به، وأقرب إليه في المقدرة عليه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ بالعلم بما توسوس به نفسه». [تفسير ٢٦/١٥٧]

فالطبري يرتضي تأويل القرب بالقدرة أو بالعلم لا بما يستلزم الجسمية والمكانية.

وقوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴿٨٣﴾ وأنتم حينئذ تنظرون ﴿٨٤﴾ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ [الواقعة ٨٣- ٨٥].

يقول الطبري: «ونحن أقرب إليه منكم، يقول: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون».

[التفسير ٢٧/٢٠٩]

وبهذا يؤوّل الإمام الطبري القرب في الآية بقرب ملائكته تعالى، وليس قرب ذاته المحال، فيصرف النص عن ظاهره، حيث إن القرب يكون بين جسمين، وفي مكان وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى.

ونلتقي مرة ثانية بمن أعلن الحرب على التأويل، وأنكر المجاز في اللغة والقرآن الكريم لنراه يؤول الآيتين المذكورتين تأويلاً مجازيًا، بل وينسب ذلك إلى المفسرين المتقدمين من السلف، ولنقرأ ما كتبه:

قال ابن تيمية: «وأما قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾.

فالمراد به: قربه بالملائكة.

وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف. قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة.

وقد قالت طائفة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بالعلم. وقال بعضهم: بالعلم والقدرة، ولفظ بعضهم: بالقدرة والرؤية.

وهذه الأقوال ضعيفة، فإنه ليس في الكتاب والسنة وصفه بقرب عام من كل موجود حتى يحتاجوا أن يقولوا بالعلم والقدرة والرؤية. ولكن بعض الناس لما ظنوا أنه يوصف بالقرب من كل شيء، تأولوا ذلك بأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء.

وكأنهم ظنوا أن لفظ (القرب) مثل لفظ (المعية).

[الفتاوى ٥/٤٩٤].

وقال ابن تيمية بعد أن ذكر قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة ١٨٦]، وحديث: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب» قال: «وطائفة من أهل السنة تفسر القرب في الآية والحديث بالعلم، لكونه هو المقصود فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي، حصل مقصوده، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول: إنه قريب من كل شيء، بمعنى العلم والقدرة، فإن هذا قد قاله بعض السلف كما

تقدم عن مقاتل بن حيان ، وكثير من الخلف .

لكن لم يقل أحد منهم : إن نفس ذاته قريبة من كل شيء .

وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين . من يقول : إنه فوق العرش ، ومن يقول : إنه ليس فوق العرش » . [الفتاوى ٥/٥٠٠] .

من هذين النصين يتبين بوضوح أن ابن تيمية :

١ - نفى المعنى الظاهر المتبادر الموهم للعرب « لم يقل أحد منهم : إن نفس ذاته قريبة من كل شيء » أي القرب المادي ، قرب الذوات والأجسام .

٢ - أنه هو و« جميع المسلمين » يرون وجوب تأويل القرب في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .

٣ - أنه يرى تأويل « القرب » في الآيتين الأوليين (آية سورة ق ، وآية سورة الواقعة) بقرب ملائكته ، وأن هذا صنيع السلف ، وهذا هو المجاز الذي أنكره . ها هو يستعمله !!

٤ - أن بعض السلف أوّل الآيتين المذكورتين بالعلم ، أو بالعلم والقدرة ، أو بالقدرة والرؤية ، وأنه يرى أن هذه الأقوال ضعيفة ، وسبب خطئهم - التسوية بين لفظ « القرب » ، ولفظ « المعية » ، ويرى أن بينهما فرقًا .

٥ - أن السلف أوّلوا « القرب » في آية البقرة ، والحديث النبوي بالعلم .

ونمضي مع ابن تيمية ، فنراه يلاحظ فرقًا في صياغة الآيات القرآنية المذكورة ، فلابد أن يترتب على ذلك اختلاف في المعنى والتأويل . فبعضها يأتي بصيغة الجمع مثل : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ ، وبعضها يأتي بصيغة المفرد مثل : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ، و« تقربت إليه » في الحديث النبوي .

يقول ابن تيمية : « ومما يدل على ذلك أنه ذكره بصيغة الجمع فقال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وإن مثل هذا اللفظ إذا ذكره الله تعالى في كتابه دل على أن المراد أنه سبحانه يفعل ذلك بجنوده وأعوانه من الملائكة ، فإن صيغة « نحن » يقولها المتبوع المطاع العظيم الذي له جنود يتبعون أمره ، وليس لأحد جند يطيعونه كطاعة الملائكة ربهم ، وهو خالقهم وربهم ، فهو سبحانه عالم بما توسوس به نفسه ، وملائكته تعلم ، فكان لفظ « نحن » هنا هو المناسب

ولهذا لما ذكر الله سبحانه قربه من داعيه وعابديه قال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ

إذا دعان﴾ ، فهنا هو نفسه سبحانه وتعالى القريب الذي يجيب دعوة الداعي لا الملائكة ، وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث المتفق على صحته : «إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا قريبًا ، إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» ، وذلك لأن الله سبحانه قريب من قلب الداعي ، فهو أقرب إليه من عنق راحلته .

وقربه من قلب الداعي له معنى متفق عليه بين أهل الإثبات ، الذين يقولون : إن الله فوق العرش ، ومعنى آخر فيه نزاع .

فالمعنى المتفق عليه عندهم يكون بتقريبه قلب الداعي إليه ، كما يقرب إليه قلب الساجد ، كما ثبت في الصحيح : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» ، فالساجد يقرب الرب إليه ، فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه في الأرض .

ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر ، صار الآخر إليه قريبًا بالضرورة ، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة ، قربت مكة إليه .

وأما قرب الرب قربًا يقوم به ، بفعله القائم بنفسه ، فهذا تنفيه الكلابية ، ومن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته ، وأما

السلف وأئمة الحديث والسنة ، فلا يمنعون ذلك ، وكذلك كثير من أهل الكلام .

وقال : «من تقرب إليَّ شبرًا ، تقربت إليه ذراعًا» . وهذه الزيادة تكون على الوجه المتفق عليه ، بزيادة تقريبه للعبد إليه جزاء على تقربه باختياره ، فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر ، زاده الرب قربًا إليه ، حتى يكون كالمتقرب بذراع ، فكذلك قرب الرب من قلب العبد ، وهو ما يحصل في قلب العبد من : معرفة الرب ، والإيمان به ، وهو المثل الأعلى ، وهذا أيضًا لا نزاع فيه ؛ وذلك أن العبد يصير محبًّا لما أحب الرب ، مبغضًا لما أبغض ، مواليًا لمن يوالي ، معاديًا لمن يعادي ، فيتحد مراده مع المراد المأثور به الذي يحبه الله ويرضاه . [الفتاوى ٥/٥٠٧- ٥١٠] .

يتبين من النص تفريقه بين ما جاء في القرب بصيغة الجمع ، فيؤول بقرب الملائكة ، وبين ما جاء بصيغة الإفراد فيؤول بتقريب قلب الداعي ، وقلب الساجد ، وقلب العابد إليه ، فيجازيهم بما يحصل في القلب من معرفة وإيمان ، وغير ذلك ، وهذا كله تأويل منه .

١١- الإتيان والمجيء :

قال الله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة : ٢١٠] .

روى القاضي أبو يعلى الحنبلي عن الإمام أحمد رضي الله عنه قال في قوله تعالى : « يأتيهم » المراد به : قدرته وأمره ، وقد بينه في قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ومثل هذا في القرآن : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ ، قال : إنما هو : قدرته » . [دفع شبه التشبيه لابن الجوزي ص ١٤١] .

وقال الإمام الطبري : « اختُلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ فقال بعضهم : لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والإتيان والنزول ، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله ، أو من رسول مرسل ، فأما القول في صفاته وأسمائه ، فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا .

وقال آخرون : إتيانه عز وجل نظير ما يعرف من مجيء

الجائي من موضع إلى موضع ، وانتقاله من مكان إلى مكان .

وقال آخرون : معنى قوله : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني به : هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله ، كما يقال : قد خشينا أن يأتينا بنو أمية . يُراد به : حكمهم .

وقال آخرون : بل معنى ذلك : هل ينظرون إلا أن يأتيهم ثوابه وحسابه وعذابه .

كما قال عز وجل : ﴿بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ، وكما يقال : قطع الوالي اللص ، أو ضربه ، وإنما قطعه أعوانه » . [التفسير ٢/ ٣٢٩] .

فالإمام ابن جرير يذكر هنا جميع الآراء : رأي المفوضة الذين يفوضون معناه علمه إلى الله تعالى ويُمِرُّون الآية كما جاءت .

ورأي المشبهة الذين يقولون : إتيانه مثل إتيان غيره .

ورأي المؤولة حسب نوع المجاز الذي اختاروه .

وينقل الإمام البيهقي رحمه الله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تأويله المجيء في قوله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بمجيء الثواب . [البداية والنهاية لابن كثير ١٠/ ٣٢٧] .

وقال الحسن رحمه الله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمره وقضاؤه. [تفسير القرطبي ٢١٤٥].

ومرة أخرى مع الإمام ابن تيمية حيث يذكر ما نسبه القاضي أبو يعلى، والإمام البيهقي إلى الإمام أحمد بن حنبل من تأويل قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن المراد به: أمره.

فيذكر من نقله عنه، ومن وافقه عليه من أصحابه. وتأويل مجيء سورة البقرة وآل عمران يوم القيامة تحاجان عن أصحابهما، كما ورد في الحديث الشريف. استمع إليه وهو يقول:

«وقد تأوّل قوم من المنتسبين إلى السنة والحديث (حديث النزول) وما كان نحوه من النصوص التي فيها فعل الربّ اللازم، كالإتيان والمجيء، والهبوط، ونحو ذلك، ونقلوا في ذلك قولاً لمالك، ولأحمد بن حنبل، لأن حنبلاً نقل عنه في المحنة أنهم لما احتجوا عليه بقول النبي ﷺ: «تجيء البقرة وآل عمران، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طيور صواف». ونحو ذلك من الحديث الذي فيه

إتيان القرآن ومجيئه.

وقالوا له: لا يوصف بالإتيان والمجيء إلا المخلوق.

فعارضهم أحمد بقوله.

وأحمد وغيره من أئمة السنة فسروا هذا الحديث بأن المراد به: مجيء ثواب البقرة وآل عمران. كما ذكر مثل ذلك من مجيء الأعمال في القبر، وفي القيامة، والمراد منه: ثواب الأعمال..

ثم إنَّ الإمام أحمد في المحنة عارضهم بقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ قال: قيل إنما يأتي أمره». [الفتاوى ٥/٣٩٧- ٣٩٩].

فتأمل ما يذكره الإمام ابن تيمية منسوبًا إلى كبار الأئمة أمثال مالك وأحمد من تأويلات متعددة للنصوص التي بعضها يتصل بالله تعالى من الإتيان والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا وغيرها، وبعضها ليس من هذا القبيل، كإتيان سورة البقرة وسورة آل عمران، وإتيان الأعمال في القبر ويوم القيامة.

هذا ما يذكره عدو التأويل، ومنكر المجاز في اللغة والقرآن الكريم رحمه الله.

الفهرس

مقدمة ٣
مدخل ١١
الفصل الأول : التأويل معناه ومتى يجب ٢٢
الفصل الثاني : تأويلات السلف في غير صفاته تعالى ٢٩
الفصل الثالث : صفات الله الخبرية ٤٩
١- الوجه ٤٩
٢- العين ٥٤
٣- اليد ٥٨
٤- الجنب ٦٧
٥- الساق ٦٩
٦- الصمد ٧١
٧- الفوقية ٧٤
٨- الاستواء ٧٨
٩- المعية ٧٩
١٠- القرب ٨٥
١١- الإتيان والمجيء ٩٢